مَدْخَل
إلى دراسة الأديان

- أولًا : تعريف الدِّين .
- ثانيًا : تقسيم الأديان .
- ثالثًا : بَاعِث التَّدين .
- رابعًا : نشأة علم الأديان .
- خامسًا : بيان أنَّ التَّوحيد سبق الشِّركَ .

أولًا : تعريف الدِّين

الدِّين في اللغة :

مشتقٌّ من الفعل الثُّلاثي دان وهو تارةً يتعدَّىٰ بنفسه ، وتارةً باللام ، وتارةً بالباء ، ويختلف المعنىٰ باختلاف ما يتعدَّىٰ به .

ـ فإذا تَعَدَّىٰ بنفسه يكون : « دانه » بمعنى ملكه ، وساسه ، وقهره وحاسبه ، وجازاه .

ـ وإذا تعدَّىٰ باللام يكون : « دان له » بمعنى خضع له ، وأطاعه .

ـ وإذا تعدَّىٰ بالباء ، يكون « دان به » بمعنىٰ اتخذه دينًا ومذهبًا واعتاده وتخلَّق به ، واعتقده[1] .

فيظهر من هذا أن الدِّين يتضمَّنُ علاقةً بين اثنين فيها انقيادٌ وخضوعٌ وتسلط وقهر من أحدهما للآخر .

الدِّين في الاصطلاح :

اختُلِفَ في تعريف الدِّين اصطلاحًا اختلافًا واسعًا حيث عرَّفه كلُّ إنسانٍ حسب مَشْربه ، وما يرى أنَّه من أهمِّ مميِّزات الدِّين .

فمنهم من عرَّفه بأنه « الشَّرعُ الإلهي المتلقىٰ عن طريق الوحي » ، وهذا تعريف أكثر المسلمين .

ويُلاحَظُ على هذا التَّعريف قصره الدِّين على الأديان السَّماوية فقط ، مع أنَّ

---

(١) انظر : لسان العرب (٢ / ١٤٦٧) ، وانظر : كتاب « الدين » محمد عبد الله دراز ص ٣٠ ـ ٣١ .

الصَّحيح أنَّ كُلَّ ما يتَّخذه النَّاس ويتعبَّدُون له فهو دين ، سواءٌ كان سماويًّا ، أو غير سماويٍّ ، بدليل قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وقوله عزَّ وجل : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون :٦] ، فسمَّىٰ ما عليه مشركى العرب من الوثنيَّة دينًا .

أمَّا غير المسلمين فبعضهم يخصِّصه بالنَّاحية الأَخلاقيَّة كقول « كانت » : بأنَّ الدِّين هو المشتمل على الاعتراف بواجباتنا كأوامر إلٰهيَّة » .

وبعضهم يخصِّصه بناحية التَّفكُّر والتَّأمُّل ، كقول « رودلف ايوكن » : « الدِّين هو التَّجربة الصُّوفية الَّتي يُجاوز الإِنسان فيها متناقضات الحياة »(١).

إِلَى غير ذلك من التَّعريفات الَّتي نظرت إلى الدِّين من زاوية . وتركت أوجهًا وزوايا عدَّةً .

وأرجح التَّعريفات أن يُقَالَ :

الدِّين : هو اعتقاد قداسة ذات ، ومجموعة السُّلوك الَّذي يدلُّ على الخضوع لتلك الذَّات ذُلًّا وحُبًّا ، رغبةً ورهبةً .

فهذا التَّعريف فيه شُمولٌ للمعبود ، سواءً كان معبودًا حقًّا . وهو اللَّه عزَّ وجلَّ ، أو معبودًا باطلًا وهو ما سوى اللَّه عزَّ وجلَّ .

كما يشمل أيضا العبادات الَّتي يتعبَّد النَّاس بها لمعبوداتهم سواء كانت سماويَّةً صَحيحةً كالإِسلام ، أَوْ لَها أَصْلٌ سماويٌّ ووقع فيها التَّحريف والنَّسخ

(١) انظر هذه التَّعريفات في كتاب « الإِنسان والأَديان » للدكتور محمد كمال جعفر ص ١٦ ـ ١٨ ـ وانظر للاستزادة كتاب الدين د . محمد دراز ص ٣٣ ـ ٣٦ .

كاليهوديَّة ، والنصرانيَّة .

أو كانت وضعيَّةً غير سماويَّة الأصل كالهندوكيَّة ، والبوذيَّة وعموم الوثنيَّات .

كما يبرز التَّعريف حال العابد إذ لابد أن يكون العابد متلبِّسًا بالخضوع ذلًّا وحبًّا للمعبود حال العبادة ، إذ ذلك أهم معاني العبادة .

ويُبيِّن التَّعريف أيضًا هدف العابد من العبادة ، وهو إمَّا رغبةً أو رهبةً ، أو رغبة ورهبة معًا ؛ لأنَّ ذلك هو مَطْلب بني آدم من العبادة . واللَّه أعلم .

○○○○

ثانيًا : تقسيم الأديان

تنقسم الأَديان التي يَدِين بها البشر باعتبار النَّظر في المعبود إلى قسمين :

القسم الأوَّل : أديانٌ تدعو إلى عبادة اللَّه وَحْدَهُ لا شريك له .

وهي في الدَّرجة الأولىٰ الإسلام ، ثم يَلِيه اليهوديَّة ، ثم النَّصرانيَّةُ الَّتي واقع ديانتها المحرّفة الشِّرك إلَّا أنَّها تزعم عبادة اللَّه ذُو الثَّلاثة أَقَانِيم ـ كما سيأتي تفصيل ذلك .

القسم الثاني : أَديانٌ وَثَنِيَّةٌ شِرْكيَّة تدعو إلى عبادة غير اللَّه عزَّ وجلَّ .

وهي : الهندوكية والبوذية وغيرها من الشِّركيَّات القديمة والحديثة .

كما تنقسم باعتبار المصدر في الأصل إلى قسمين أيضا :

١ـ **أديانٌ سماويَّةٌ** ، وهي : الإسلامُ واليهوديَّةُ والنصرانيَّةُ .

٢ـ **وأديان وضعيَّةٌ** ، وهي : سائر الأديان الشِّركيَّة .

○○○○

ثالثًا : بَاعِث التَّدين

قال اللَّه عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [النحل : ٣٦] .

وقال عزَّ وجلَّ أيضًا : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] .

قال ابن كثير رحمه اللَّه عند الآية الأولىٰ : « وبعث في كُلِّ أُمَّةٍ أي من كُلِّ قرنٍ وطائفةٍ رسولًا ... » .

ثم قال : « ... فلم يزل تعالى يُرسِلُ إلى النَّاس الرُّسل بذلك منذ حدث الشِّركُ في بني آدم في قوم نوح الذين أُرسِلَ إليهم نوحٌ عليه السَّلام »[١] .

فهذا فيه دلالة واضحة على أنَّ البشر ما انفكوا عن رُسُلٍ يدعونهم إلى اللَّه ويشرِّعون لهم الشرائع الَّتي يتعبدون للَّه بها . كلَّما اندرست معالم التَّوحيد ، وانطمست أنواره في نفوسهم .

وذلك يعني أنَّ التَّجمُّعات البشريَّة لم تخلُ من دين تتديَّن به وتضبط كثيرًا من نواحي حياتها وفقه .

وهذا ما أكَّده أيضًا علم الآثار والبحوث الاجتماعية في التَّجمُّعات البشرية ، إذ يصرِّح كثيرٌ من ذوي هذه الاختصاصات : أنَّ الجماعات البشريَّة القديمة والحديثه ، المتحضِّرة وغير المتحضِّرة كان لها دين تتديَّنُ به .

يقول هنري برجسون[٢]: لقد وُجِدَت وتُوجَدُ جماعات إنسانيَّة من غير علوم

---

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٥٢٢) .

(٢) هو فيلسوف يهودي الأصل وشاع أنه اعتنق النصرانية في أخريات حياته ولكن فلسفته كلها تدلُّ على أنه لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا ذا دين مطلقا ، وإنما كان دهريًا يرى الحياة قوة مندفعة تخبط خبط عشواء . انظر حاشية الدّين ص ١٤٣ .

وفنون وفلسفات ، ولكن لم توجد جماعةٌ بغير ديانة »[١] .

فهذه الدَّلالات المؤكَّدةُ ، والحقيقة الَّتي لا تقبل الجدل في أنَّ النزعة الدِّينية متعمِّقَةٌ في الإنسان ومغروزة فيه تجعل الباحث والنَّاظر في ذلك يتساءل عن الباعث على هذا التَّدَيُّن ما هو ، مع أنَّ الدِّين ليس من الماديَّات ، ولا من الشَّهوات الَّتي تتعلَّقُ بها النُّفوس ، بل الدِّين له تبعات ، ولوازم تجعل الإنسان في كثيرٍ من الأحيان يبذُلُ دمه من أجله فضلًا عن ماله ووقته وعواطفه ، ويتحكَّم في كثيرٍ من تصرُّفات الإنسان وعلاقاته . فكثر في بيان الباعث القيل والقال والاستنتاجات ، والتخمينات ، وإليك بعض هذه الأقوال وهي كُلُّها لغير المسلمين .

فقال بعضهم : إنَّ الدَّافع إلى التَّديُّن الخوف من الطَّبيعة حوله بما فيها من برق ورعد وزلازل وبراكين وحيوانات متوحِّشة ، جعلت الإنسان في الأزمان المتقدِّمة وهو الضَّعيف الَّذي لا حول له ولا طول مع هذه الأحوال المتغيِّرة حوله يبحث عن قوَّة غيبيَّة لها سيطرة وتأثير في هذه الطَّبيعة حوله ، ولها قدرة على حمايته ، وحفظه فألَّه وعبد ما يرى أنَّه أقوى ، وأقدر على حمايته ممَّا حوله من المخلوقات ، كالشَّمس ، أو القمر أو البحر ونحو ذلك[٢] .

وقال بعضهم وهو « ماكس ميللر »[٣] إنَّ العقل هو الباعث على التَّديُّن ،

---

(١) نقلا عن كتاب « الدين » د / محمد دراز ص ٨٣ وانظر الإنسان في ظل الأديان / د . محمد نجيب ص ٢٥ .

(٢) هذا قول الإنجليزي جيفونس في كتابه « المدخل إلى تاريخ الديانات » نقلا عن كتاب الدين د . محمد دراز ص ١٢٥ .

(٣) هو ألمانيٌّ من علماء اللغات ومن الدَّارسين المتعمِّقين في دراسة الأساطير .

وذلك أنَّ العقل ميزة الإنسان عن الحيوان ، وهو باعث على النّظر والتفكُّر في هذه المخلوقات ، والإعجاب بها وتعظيمها ، ومن هنا أخذ العقل يفكر فيما وراء الطبيعة ، وأدَّاه عقله مع اللغة المستخدمة في الحديث عن الجمادات[١] إلى صبغها بصبغة الأحياء ذوات الأرواح ، ممَّا جعله يعبدها ويتَّخذها إلهًا[٢] .

وهناك قول ثالث في الباعث قال به « دور كايم » الفرنسي[٣] وهو أنَّ الحاجةَ الاجتماعيةَ هي الباعث على التَّديُّن ، وذلك أنَّ المجتمعات البشريةَ تحتاج إلى نظم وقوانين تحفظ الحقوق وتصون الحرمات ، ويؤدِّي كُلُّ إنسان واجبَه بمراقبة داخليَّة ، ممَّا جعل بعض الأفذاذ وذوى القيادة يتولَّد في أذهانهم الدِّينُ ، ويبثُّونه في جماعتهم ، فتقبله الجماعة لحاجتها لذلك[٤] .

هذه الأقوال يظهر منها واضحًا ادِّعاء أنَّ الدِّينَ مصدره الإنسان وأنَّ باعثه أمرٌ من الأُمور المتعلِّقة بالطَّبيعة حول الإنسان ، أو دوافع داخليَّة في الإنسان .

ولا تحتاج هذه الأَقوال إلى كثير عناء في إبطالها وردِّها ، إذ أنَّ هذه البواعث المذكورة كثيرًا ما تكون غير موجودة ، ومع ذلك يكون التَّديُّن ظاهرًا واضحًا يصدم دعاة الإلحاد ويهدم تخرُّصَاتِهم . ولا يعدو ما ذُكِرَ هنا من باعث التَّديُّن يحتاج أن يكون تخرُّصا وفرضًا باطلًا ، إذ أنَّ الحديث عن باعث التَّديُّن إلى سبر أَغوار النَّفس البشريَّة ، ودراسة تاريخيَّة متعمِّقة ، تشمل الإنسان الأوَّل ،

---

(١) المراد أنَّ اللغة تتحدَّث عن بعض الجمادات وكأنَّ لها إرادة وفيها روح كقولهم النهر يجري والشَّمس تطلع والمطر ينهمر ونحو ذلك .

(٢) انظر « الدين » ص ١١٤ ـ كتاب « الله جلَّ جلاله » للعقاد ص ١٧ .

(٣) هو أميل دوركايم عالم اجتماع فرنسي تُوُفِّيَ ١٩١٧ م . انظر المنجد في الأَعلام ص ٢٩٠ .

(٤) انظر « الدين » ص ١٥٠ وكذلك كتاب الإنسان فى ظل الأَديان ص ٣٩ .

وتسير معه سيرًا متأنِّيًا ، كاشفة عن مشاعره وأحاسيسه وتقلُّباتها حسب الظُّروف والأَحوال الَّتي تحيط به ، إذ أنَّ الدِّين له أَوقات يظهر بها ويتَّضح جليًّا في حياة الإِنسان ، وهي أَوقات الأَزمات والمخاوف الَّتي يقع فيها الإِنسان .

كما أنَّ له أوقاتًا يكمُنُ فيها ولا يظهر ، وهي أوقات الرَّخاء والغِنَى ، إذ يقع الإِنسان فيها فريسةً سهلة للغفلة والبُعد عن الدِّين . كما أنَّ الباحث يجب أن يكون في حال بحثه خاليا من المؤثِّرات البيئيَّة والدِّينيَّة والثَّقافيَّة ، وذلك من أَجل أن يكون حكمُهُ على الظَّواهر الَّتي يَقَعُ عليها سليمًا من المؤثِّرات الخارجية وأنَّى للباحث أن يتخلَّص من ذلك[1] . فهذه الأُمور تجعل الوصول إلى باعث التَّديُّن الحقيقيِّ من الصُّعوبة والعسر ما لا يتمكَّن منه الإِنسان .

ونحن المسلمين نعتقِدُ أنَّ الباعث على التَّديُّن : هو الفطرة ، ونعتمد في ذلك على الوحي الإِلهيِّ والنُّورِ الرَّبَّانيِّ ، فإِنَّ القرآن والسُّنَّة نصَّا على أنَّ الإِنسان خُلِقَ مفطورًا على الإِقرار بالخالق والعبوديَّة له والبراءة من الشِّرك[2] .

يدلُّ على ذلك قول اللَّه عز وجل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] . وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣] .

---

(١) انظر في الردِّ على هذه التخرُّصات كتاب الدِّين ص ١١٤ - ١٦٤ .

(٢) أكثر السَّلف على أنَّ المراد بالفطرة الإِسلام . انظر فتح الباري (٣ / ٢٤٨) .

فهذه الآية تشهد للآية قبلها ، وتبيِّن كيف جعل اللَّه ذلك في فطر بني آدم ، وأنَّه أخرجهم من أصلاب آبائهم وأخذ عليهم بذلك العهد والميثاق .

فقد روى البخاريُّ ومسلم في صحِيحيْهِمَا من حديث أنس رضي اللَّه عنه عن النَّبِيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قال : يقول اللَّه تعالى لِأَهونِ أهل النَّار عذابا : « لو كانت لك الدُّنيا وما فيها أَكُنتَ مفتديًا بها ؟ فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أهونَ من هذا وأنت في صُلبِ آدم : أن لا تُشرِك ولا أدخلك النَّار فأبيت إلَّا الشِّرك »[١] .

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما مرفوعًا قال : « إنَّ اللَّه أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السَّلام بنعمان - يعني عرفة - فأخرج من صلبه كُلَّ ذُريَّةٍ ذرأها فنثرهم بين يديه كالذَّرّ ، ثم كلَّمهُم قبلا قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ... ﴾ الآية [الأعراف : ١٧٢][٢] .

ومن الأدلَّة الدَّالَّة على أنَّ الإنسان مفطورٌ على الدِّين الحقِّ حديث أَبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال النبي ﷺ « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرة فَأَبَواه يُهَوِّدَانِه ، أو يُنَصِّرانه ، أو يُمَجِّسانه كمثل البَهِيمة تنتج البَهِيمة هل تَرَىٰ فيها جَدْعاء »[٣] .

وحديث عياض بن حمار المجاشعيّ ، رضي اللَّه عنه : أنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ

---

(١) خ ك الأَنبياء ب ٢ (٤ / ١٠٦) م . ك المنافقين ب ١٠ (٤ / ٢١٦٠) .

(٢) مسند أحمد (١ / ٢٧٢) وذكر ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٤١) روايات عديدة في هذا المعنى ورجح وقفها علىَ ابن عباس رضي اللَّه عنه .

(٣) أخرجه خ الجنائز ب ٩٢ - انظر فتح الباري (٣ / ٢٤٦) .

قال ذات يوم ، في خطبته : « ألا إِنَّ ربّي أمرني أن أعلِّمَكُم ما جهلتم ، ممَّا علَّمني يومي هذا : كل مال نحلته عبدًا حلالٌ ، وإِنِّي خلقت عبادي حُنَفَاء كُلّهم ، وإِنَّهم أتتهم الشَّياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحَرّمت عَلَيهم مَا أَحْلَلتُ لهم ، وأَمَرَتْهُم أَن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطانًا ... الحديث »[1].

فهذه الأدلَّةُ صريحة في بيان أنَّ الإِنسان مفطورٌ على الإِقرار بالخالق ، وعبوديته وهذا هو التَّديُّن وذلك باعثه ـ ومَن أَصدَقُ من اللَّه حديثا .

كما دلَّت هذه الأَدلَّة أَيضا على أمرين :

أحدهما : أنَّ هذه الفطرةَ والإِقرارَ بالخالق إِلهًا وربًّا ، قابلة للتَّأثُّر والتَّغيُّر ، والانحراف بفعل مؤثِّراتٍ خارجيةٍ ، ولذلك نعتقد بأنَّ السَّبب في وجود الوثنيَّات السَّابقة في الأُمم البائدة ، واللاحقة في الأُمَمِ الحاضِرَةِ هو هذه المؤثِّرات الَّتي وردت في هذه النُّصُوص

ثانيهما : أنَّ المؤثِّرات الَّتي تؤدِّي إلى انحراف الفطرة على ضوء هذه الأَدلَّةِ ثَلاثَةٌ ، وهي :

١ـ **الشَّياطين** : وهي المؤثِّرُ الخارجيُّ الأصليُّ والأوَّل في هذا الأمر كما دَلَّ على ذلك حديث عياض بن حمار المجاشعيّ رضي اللَّه عنه .

٢ـ **الأبوان** : ويقوم المجتمع بدور الأبوين في حال فقدهما وهذا المؤثِّر هو أقوى المؤثِّرات ، وأخطرها لشدَّة التصاق الأَولاد بآبائهم وقوَّة تأثيرهم عليهم .

وقد قدمت الشَّياطين على الآباء ، لأنَّ الشَّياطينَ هي المؤثِّرُ الخارجيُّ الأَوَّل في انحراف الآباء أَنفُسِهم .

---

(١) أخرجه م . ك الجنة ب ١٦ (٤ / ٢١٩٧) حم (٤ / ١٦٢) .

٣ ـ **الغفلة** : وهي المؤثِّر الثَّالث في انحراف هذه الفطرة كما دلَّت على ذلك آية سورة الأَعراف .

ولسائل أن يسأل : ماهي فائدة الفطرة والحال هذه من تأثرها بهذه المؤثِّرات الخارجيَّة الَّتي تؤدِّي إِلى انحرافها ، ولا يكاد الإِنسان ينفكُّ عن واحدٍ من هذه الصَّوارف ، أو كُلِّها ؟

والجواب عن ذلك أن يُقَالَ : إنَّ حكمة اللَّه اقتضت جَعلَ الفطرة بهذه الحال ليتحقَّق الغرض من ابتلاء الإِنسان بالخير والشَّرِّ ومن ثَمَّ جزاؤه على عمله إذ لو كانت الفطرة لا تتأثَّر بشيءٍ لما وقع الكُفرُ والانحراف في بني آدم ، بل صاروا غير قابلين للكفر فلا يتحقَّق الابتلاء ، وللَّه الحكمة البالغة .

ومع ذلك فإنَّ لهذه الفطرة فوائد عديدة منها :

أولًا : أنَّ هذه الفطرة غرزت في نفس البشريَّةِ التَّديُّنَ والتَّعبُّد للَّه عزَّ وجلَّ فإذا لم يهتد الإِنسانُ إِلَى اللَّه عزَّ وجلَّ فإنَّه يُعبّدُ نفسه لأيِّ معبود آخر ليشبع في ذلك نهمته إلى التَّديُّن ، وذلك كمن استبدَّ به الجوع فإنَّه إذَا لم يجد الطَّعَامَ الطَّيِّبَ الَّذي يناسبه فإنَّه يتناول كُلَّ ما يمكن أكله ولو كان خبيثًا ليسدَّ به جوعته .

وهذا ما يفسِّر لنا وجود التَّديُّن عند عموم البشر وقد يكون الدِّينُ والمعبود في كثير من الأَحيان باطلًا .

ثانيًا : أنَّ هذه الفطرة جعلت في جبلَّة الإنسان قبول العبودية والانسجام مع لوازمها ، وهذا من الأمور المهمة للإنسان ، لأنَّ كُلَّ ما لا يتَّفق مع الفطرة فإِنَّ النَّفس تنفر منه ولا تستجيب لمتطلباته .

ثالثًا : أَنَّ هذه الفطرة مرجِّحَةٌ للحقِّ ، فإذا تعرّف الإنسان على دينين حقّ وباطل ، فإنَّ الفطرة تميِّز بينهما وتميل إلى الحقِّ بل يقع ذلك في قرارة النَّفس ويتيقَّن القلب منه ، فإمَّا أن يعلن ذلك ويلتزم به ، أو لا يستجيب له بسبب هوى أَو خوف ، أو إلف وتقليد ونحو ذلك من الصَّوارف عن الحقِّ .

رابعًا : أنَّ هذه الفطرة تهب للمهتدي يقينًا بالحقِّ الذي هو عليه وإن لم يكن عنده من الأَدلة النَّظرية ما يهبه هذا اليقين ، وهذا يفسِّر لنا ـ واللَّه أعلم ـ عدم ترك المسلم لدينة رغبة عنه وما ذلك إلَّا لتناسبه مع فطرته ، فيعطيه ذلك يقينًا بأنَّه الحقُّ ، وكذلك من اهتدى إلى الإسلام من ذوي الأَديان الأخرى الباطلة ، فإنه يتمسَّك به تمسُّكَ الغريق بحبل النَّجاة ، وما ذلك إلَّا لتيقُّنه من أنَّ هذا الدِّين هو الحقّ ، لتناسبه وانسجامه مع الفطرة . واللَّه أَعلم .

○○○○

رابعًا : نشأة علم الأديان

الكتابة في الأَديان وتفصيل عقائد النَّاس وعباداتهم وكذلك عقد المقارنات بين الأديان أوّل ما نشأ في بيئة إسلامية ، إذ المسلمون هم أوَّل من كتب في هذا النَّوع من العلم وأفرده بالتَّصنيف . وقد استوحوا هذا من القرآن الكريم الَّذي ورد فيه كثير من عقائد النَّاس وعباداتهم السَّابقة واللاحقة لوقت نزوله ، فقد ورد فيه التَّفصيل في عقائد اليهود وانحرَافاتهم ، وعقيدة النَّصارى وانحرافهم ، كما أرجع بعض العبادات الفاسدة والأَديان المنحرفة بعضها إلى بعض وبين شبههم الَّتي يستندون إليها ، وردَّ عليها وبيَّن خطأهم وضلالهم ودعاهم إلى قبول الحقِّ والإذعان له . بل عقد القرآن الكريم المقارنات بين الحقِّ والباطل ودعى إلى تمييز الحقِّ ومعرفته بالنَّظر السَّليم فقال عزَّ وجلَّ : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ١٣٩] .

وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف : ١٩١ - ١٩٥] .

كما عقد الأَنبياء عليهم السَّلام المقارنات العديدة مع أَقوامهم . كما في قصَّة إبراهيم مع أبيه وقومه ، وشُعَيب مع قومه ، وغيرهم ، وما ذلك إلَّا لأنَّ ذكر الأَديان والعقائد فيه نصر للحقِّ بإظهار عور الباطل وزيفه ، لأنَّ الإسلامَ دينٌ لا

إكراه فيه ، بل يعتمد على الدَّعوة والإِقناع وتحريك المشاعر والسُّموِّ بها فوق التَّقليد الأَعمى والتبعيّة ، فيلزم لهذه الغاية زيادة التَّوضيح والمقارنة لفتح المجال أَمَامَ العقل للمقارنة والموازنة ، ثم الاختيار والإِيمان .

فاستوحى علماء المسلمين من ذلك أنَّ الكتابة في الأديان منهجٌ دعويٌّ فكتبوا في هذا العلم كتبا عديدة ، ومن أوائل هذه الكتب :

١ـ « المقالات في أُصول الديانات » للمسعوديّ ـ ت (٣٤٦) هـ .

٢ـ « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » لأبي الرّيحان البيروني ت (٤٠٤) هـ .

٣ـ « الفصل في الملل والأَهواء والنِّحَل » لابن حزم ـ ت (٤٥٦) هـ .

٤ـ « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » للرَّازي ـ ت (٦٠٦) هـ .

٥ـ « الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المسيح » لشيخ الإسلام ابن تيمية ت (٧٢٨) هـ .

وغيرها كثير أرسى به المسلمون قواعد هذا العلم ، حيث أوردوا ما يعتقده أَصحابُ الدّيانات وما يتعبدون به مع التَّأصيل في البعض والاكتفاء بالعرض في البعض الآخر . فكانوا بذلك سابقين لغيرهم في وضع قواعد هذا العلم ، حيث لم يعتن به الغربيون إِلَّا في العصور المتأَخِّرة بعدما يسمى بعصر النَّهضة في القرنين الخامس عشر والسَّادس عشر الميلادي .

فأرسلوا البعوث من رجال دينهم إِلى الشَّرق والغرب وإِلى بلاد الهند والصِّين للاطلاع على دياناتهم ـ وهذه البعوث لم تكن في الواقع إِلَّا مقدِّمات للاستعمار .

ثم إنَّ هذا العلم تطوّر ، فأَصبح يبحث في نشأة التَّديُّن عند الإِنسان وأوجه التَّشابه بين الديانات ، وساعدهم على ذلك التَّنقيب عن الآثار وتعلُّم اللغات القديمة ، فأفادوا من ذلك معرفة ما عيله عبادات الأَقوام القديمة ، فأكملوا ما بدأه المسلمون ، مع أنَّ المسلمين يتميَّزون عنهم بأنَّ لهم أصلا يرجعون إِليه فيصحِّحون على ضوئه النَّتائج الخاطئة الَّتي قد تتولَّد من النَّظر في العقائد القديمة ، أعنى بهذا الأَصل الوحي الإِلهيّ ؛ القرآن الكريم والسُّنة المطهَّرة .

○○○○

خامسًا : بيان أنَّ التَّوحيد سبق الشِّركَ

قد تقدَّم بيان أنَّه لم تُوجَدْ أُمَّةٌ من الأُمَمِ إلَّا وكان لها دين تدين به ، وعبادة تلتزم بها ، كما تقدَّم بيان أنَّ الأديان نوعان : أديان سماويَّةٌ ، وأديان وضعيَّة شِركيَّةٌ . وقد زعم الملحدون : أنَّ الشِّرك كان أسبق في الوجود على الأرض من التَّوحيد ، وهو قول مبنيٌّ على إنكارهم للخالق جلَّ وعلا ، وزعمهم أنَّ الإنسان إنما وجد من الطَّبيعة حيث كان أَنيميا ، ثم تطوَّر بفعل الرُّطوبة حتى وصل بعد أزمان عديدة إلى صورة القرد ، ثم تطوَّر فصار القرد إنسانًا ، فزعموا أنَّ هذا الإنسان . وكان في ذلك الوقت في طور الطُّفولة البشريَّة . أَخذ يبحث عن إله يعبده ، فتوجَّه إلى عبادة الآباء والأجداد ، والأَشجار ، والحيوانات الضَّخمة ، والشَّمس ، والقمر ، إلى غير ذلك من الأَشياء الَّتي يستعظمها في نفسه ، ثم بدأ هذا الإنسان يتطوَّر في عقله وأَحاسيسه ، فبدأ يتخلَّى عن كثير من الآلهة الَّتي كان يعبدها حتَّى توصَّل في عهد الفراعنة إلى التَّوحيد ، ولا يعني ذلك عندهم عبادة اللَّه وحده لا شريك له ، وإنما عبادة إله واحدٍ وهو « رع » الَّذي يُرمَزُ له بقرص الشَّمس .

وظاهر من هذا القول أنَّ أَصحابه يزعمون أنَّ الأديان من صُنعِ البشر وليست من قبل اللَّه عزَّ وجلَّ ، والعجيب أن يوافقهم على هذا القول بعض المفكِّرين والمنتسبين للإسلام كالعقَّاد في كتابه « اللَّه جلَّ جلاله »[1] وعبد الكريم الخطيب في كتابه « قضية الألوهيَّة بين الفلسفة والدِّين »[2] .

---

(١) انظره في - ص (٧ / ٣٥) من الكتاب .

(٢) انظره - ص (٧٠ - ٩٥) .

وقد زعم أصحاب هذا القول أنَّ لهم عليه دليلين :

أولا : القياس على الصِّناعة ، فكما أنَّ الإِنسان قد تطوَّر في صناعته فهو كذلك تطوَّر في ديانته .

ثانيًا : أنَّ الحفريَّات دلَّتهُم على أنَّ النَّاس وَقَعُوا في الشِّرك وتعدُّدِ الآلهة وأن الإِنسان عرف التَّوحيد متأخرًا[1] .

وهذا في الواقع قياس فاسد ، واستدلال باطل ، فقولهم إِنَّ الدِّين كالصِّناعة قياس مع الفارق لعدة أمور :

أوَلًا : أنَّ الصِّناعات شيءٌ ماديٌّ ، والأديان شيءٌ معنويٌّ ، فكيف يُقَاسُ شيءٌ معنويٌّ غير محسوس على شيءٍ ماديٍّ محسوسٍ فهو كمن يقيس الهواء على الماء .

ثانيا : أنَّ الصِّناعة تقوم على التَّجربة والملاحظة وتظهر النتائج بعد استكمال مقوماتها ، بخلاف الدِّين الَّذي لا يقوم على ذلك ولا تظهر نتائجه في هذه الحياة الدُّنيا .

ثالثا : يلزم من هذا القياس أنْ يكون الإِنسان في هذا الزَّمن صادق التَّديُّن خالص التَّوحيد ، لأنَّ الصِّناعة قد بلغت مبلغًا عاليًا من التَّطوُّر ، والواقع خلاف ذلك فإِنَّ الإِنسان أَحط ما يكون من النَّاحية الدِّينيَّة ، إذ الإِلحاد متفشٍ في أكثر بقاع العالم .

كما يلزم منه أَن لا يُوجَدَ شركٌ في هذا الزَّمن ، والواقع خلاف ذلك ، حيث الشِّرك متفشٍ في الشَّرق والغرب .

---

(١) انظر : كتاب « اللَّه جلَّ جلاله » للعقاد ص (٧ ، ٢٧) .

أَمَّا زعمهم الاستدلال على قولهم بالحفريات ومخلَّفات الأمم السَّابقة .

فيُقَالُ : إنَّ هذه الحفريَّات ناقصة ، فلا دلالة فيها على ما ذكروا سوى التَّخمين ومحاولة الرَّبط بين أُمور متباعدة ، وغاية ما تدلُّ عليه الحفريات والآثار أنَّ الأمم السَّابقة وقعت في الشِّرك ، وهذا لا ننكره بل القرآن والسُّنة نصَّا على ذلك وبيَّناه ، أمَّا عبادة الإِنسان الأوَّل وعقيدته فلا يمكن معرفتها من خلال الآثار حتَّى يعثروا على الإِنسان الأوَّل ويجدوا آثارًا تدلُّ على عقيدته وعبادته .

ثم إِنَّ المؤكّد أنَّ الأُمَمَ تتقلَّب في عباداتها ، فتنتقل من التَّوحيد إِلَى الشِّرك ، ومن الشِّرك إِلى التَّوحيد ، فمثلًا أهل مكَّة كانوا على التَّوحيد دين إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السَّلام ، ثم وقعوا في الشِّرك ، ثم عادوا إِلى التَّوحيد بدعوة سيدنا محمَّد ﷺ ، فمعرفة عبادة أُمَّةٍ من الأُمَم لا يعني أنَّها لم تعرف سوى هذه العبادة ، بل ذلك يعني أنَّها كانت على هذه العبادة في تلك الفترة فقط .

وبهذا يظهر جليًّا واضحًا فساد هذا القول ، وأنَّ ما استدلُّوا به ليس إلا تخرُّصات وتوهُّمات ، لا تقوم في وجه الحقِّ الواضح البيِّن وهو :

أنَّ الإِنسانَ أوَّلُ ما عرف التَّوحيد ، ثم بدأ بالانحراف فتدرَّج أَمره حتَّى وقع في الشِّرك ، وذلك لأنَّ الإِنسان الأوَّل هو آدم عليه السَّلام كان نبيًّا يعبُدُ اللَّه وحده لا شريك له ، وعلم أبناءه التَّوحيد إِلَى أن وقع بنو آدم في الشِّرك بعده بأزمان ـ وهذا يقرُّ به ويقول به كُلُّ من يؤمن بأنَّ اللَّه هو الخالق ، وكُلُّ من يؤمن بالأَديان السَّماويَّة الثَّلاثة الإِسلام والنَّصرانيّة واليهوديَّة إِلَّا من تابع قول الملحدين منهم .

ومن الأدلَّة زيادة على هذا : قوله تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

قال ابن عباس رضي اللَّه عنه فيما روى عنه ابن جرير بسنده : (كان بين آدم ونوح عشرة قُرُون ، كُلُّهم على شريعةٍ من الحقِّ فاختلفوا فبعث اللَّه النبيين مبشرين ومنذرين)[1] .

ويؤيِّد هذا قراءة أُبَيّ بن كعب وعبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنهما : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا ﴾ الآية [البقرة : ٢١٣] .

ويؤيده أَيضا قوله عزَّ وجلَّ في سورة يونس : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا ﴾ [يونس : ١٩] .

فهذا ينصُّ على أنَّ بني آدم عبدوا اللَّه عزَّ وجلَّ فترة من الزَّمن وهي عشرة قرون[2] كما يذكر ابن عباس رضي اللَّه عنه ، ثم أَنَّهم انحرفوا عن هذا النَّهج القويم فبعث اللَّه إِليهم الرُّسل ليردُّوهم إِلى التَّوحيد .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي اللَّه عنه يُبَيِّنُ لنا كيف بدأ وقوع بني آدم في الشِّرك . فقد أخرج البخاريُّ بسنده عنه أنَّه قال في معنى قول اللَّه عزَّ وجلَّ : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] ، قال : « هذه أَسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلمَّا هلكوا أوحى الشَّيطان إِلَى قومهم أَن انصبوا إِلى مجالسهم الَّتي كانوا يجلسون

---

(١) تفسير ابن جرير (٢ / ٣٣٤) .

(٢) يلاحظ أن القرن لا يعني بالتأكيد مائة سنة كما هو عليه الحال في تعارف النَّاس الآن فقد يعني ذلك الجيل كما في الحديث (خير القرون قرني ...) .

إليها أَنصابا ، وسمُّوها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتَّى إذا هلك أُولئك ونُسِيَ العِلمُ عُبِدَتْ »[1] .

فهذا كان مبدأَ وقوع بني آدم في الشِّرك وانحرافهم عن توحيد اللَّه عزَّ وجلَّ ولايعني استدلالنا هذا أنَّ هذا الأمر لم يثبت إلَّا عن طريق الوحي ـ وإن كان كافيًا في هذا ـ بل إنَّ هذا القول أثبته علماء ، في الآثار وباحثون في الأديان من الغربيِّين وغيرهم .

يقول الباحث « آدمسون هيوبل » المتخصِّص في دراسة الملل البدائية : « لقد مضى ذلك العهد الَّذي كان يتهم الرَّجُل القديم بأنَّه غير قادر على التَّفكير فيما يتعلَّق بالذَّات المقدَّسة أَو في اللَّه العظيم ، ولقد أخطأ « تيلور » حيث جعل التَّفكير الدِّينيَّ الموحَّدَ نتيجةً للتَّقدُّم الحضاريِّ والسُّموِّ المعرفيِّ ، وجعل ذلك نتيجة لتطوُّر بدأ من عبادة الأرواح والأَشباح ثم التَّعدّد ثم أَخيرًا العثور على فكرة التَّوحيد » .

ويقول الباحث « اندري لانج » من علماء القرن الماضي : « إنَّ النَّاس في استراليا وأَفريقيا والهند لم ينشأ اعتقادهم في اللَّه العظيم على أساسٍ من الاعتقاد المسيحيِّ ، وقد أكد هذا الرَّأي العالم الاسترالي « وليم سميث » حيث ذكر في كتابه « أسس فكرة التَّوحيد » مجموعة من البراهين والأدلَّةِ جمعها من عدَّة مناطق واتِّجاهات تؤكِّد أنَّ أَوَّل تعبُّدٍ مارسه الإِنسانُ كان تجاه اللَّه الواحد العظيم » .

ويقول الدكتور الحاج « أورانج كاي » من علماء الملايو في أندونيسيا : « عندنا

---

(١) انظر : صحيح البخاريِّ مع الفتح (٨ / ٦٦٧) .

في بلاد أرخبيل الملايو دليلٌ أكيد على أنَّ أهل ديارنا هذه كانوا يعبدون اللَّه الواحد ، وذلك قبل أن يدخل الإِسلامُ إِلى هذه الدِّيار ، وقبل أَن تدخل النَّصرانيَّةُ .

وفي عقيدة جزيرة كلمنتان بأندونيسيا لوثة من الهندوسية ورائحة من الإِسلام ، مع أنَّ التَّوحيد كعبادةٍ لأهل هذه الدِّيار كان هو الأصل قبل وصول الهندوسية أَو الإِسلام إِليها .

وإذا رجعنا إِلى اللغة الدَّارجة لأهل هذه الدِّيار قبل استخدام اللغة السَّانسكريتيَّة أَو قبل هجرة الهندوسيَّة أَو دخول الإِسلام تأكَّدنا من أنَّ التَّصوُّر الاعتقادي لأجدادنا حسب النُّطق والتَّعبير الموروث هو أنَّ اللَّه في عقيدتهم واحدٌ لا شريك له »[1] .

○○○○

(١) كتاب التَّفكير الدِّيني في العالم قبل الإِسلام ـ ص (٢٨ ـ ٣٠) بتصرُّف .